ISSN: 3079-062X
مجلة علمية محكّمة نصف سنوية تصدر عن الجمعية الليبية للعلوم التربوية والإنسانية
https://alasala.alandalus-libya.org.ly/ojs/index.php/aj/index

خير الدين التونسي وأطروحته الإصلاحية في تونس (1820 – 1890م)

أ. خليفه اللافي خليفه جولق*
قسم التاريخ ، كلية التربية العجيلات ، جامعة الزاوية ، ليبيا
K.jouliq@zu.edu.ly

تاريخ الارسال 2026/3/13م تاريخ القبول 2026/4/11م

Kheireddine al-Tunisi and his reformist thesis in Tunis (1820–1890) Tunisia

A. Khalifa al-Lafi Khalifa Joulq – History Department
Faculty of Education, El Ajilat – University of Zawiya
K.jouliq@zu.edu.ly

Abstract:

Kheireddine al-Tunisi (d. 1890) is considered one of the most prominent reformist thinkers in the Arab world during the 19th century, combining traditional scientific training with modern experience. He was educated at the Zaytuna Mosque and was influenced by the educational systems he witnessed at Al-Azhar. He also learned about modern European systems during his travels to France and elsewhere, which contributed to the formation of his comprehensive reformist vision. He expressed his intellectual project in his famous book, The Most Correct Paths to Understanding the Conditions of Kingdoms, in which he laid the foundations for comprehensive reform of the state and society.

He called for the establishment of the principle of shura (consultation) and the implementation of the rule of law, as well as the establishment of a state based on institutions. He also sought economic and financial reform, the implementation of taxation, rationalisation of spending, encouragement of agriculture, trade and industry, linking the economy to production rather than privileges, and worked to modernise and reorganise the Tunisian army on modern foundations, improving training and armament to preserve the sovereignty of the state. He also carried out important cultural and educational reforms, These included developing curricula at

حقوق النشر © للمؤلف/للمؤلفين 2025. ينشر هذا البحث بموجب رخصة المشاع الإبداعي Creative Commons (CC BY-NC

Zaytouna Mosque, establishing the Sadiki School, where an elite group of intellectual and political leaders studied, and founding a large public library, to which he added his private library, which contained more than 1,100 books. All of this was part of a comprehensive cultural project aimed at modernising the Tunisian state and advancing society intellectually, administratively and politically.

الملخص :

يعد خير الدين التونسي (ت 1890م) من أبرز رواد الفكر الإصلاحي في العالم العربي خلال القرن التاسع عشر ، إذ جمع التكوين العلمي التقليدي والتجربة الحديثة . تلقى تعليمه في جامع الزيتونة ، وتأثر بما شهده من نظم التعليم في الأزهر، كما اطلع على النظم الأوربية الحديثة خلال رحلاته إلى فرنسا وغيرها، الأمر الذي أسهم في تشكيل رؤيته الإصلاحية المتكاملة ، وقد عبر عن مشروعه الفكري في كتابه الشهير (أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك) الذي وضع فيه أسس الإصلاح الشامل للدولة والمجتمع.

وقد دعا إلى ترسيخ مبدأ الشورى وتنفيذ سلطة الحاكم بالقانون، وإقامة دولة المؤسسات ، كما سعى إلي الإصلاح الاقتصادي، والنظام المالي وتنفيذ الجباية ، وترشيد الإنفاق ، وتشجيع الزراعة والتجارة والصناعة ، وربط الاقتصاد بالإنتاج لا بالإمتيازات ، وعمل على تحديث الجيش التونسي و تنظيمه على الأسس الحديثة ، وتحسين التدريب والتسليح بما يحفظ سيادة الدولة ، كما أنجز إصلاحات ثقافية وتعليمية مهمة ؛ شملت تطوير المناهج في جامع الزيتونة ، وإنشاء المدرسة الصادقية ، التي درس فيها نخبة من رواد الفكر والسياسية ، إضافة إلى تأسيس مكتبة عامة كبرى ، ضم إليها مكتبته الخاصة ، التي احتوت على أكثر من (1100) كتابٍ ، وكل ذلك في إطار مشروع حضاري شامل هدف إلى تحديث الدولة التونسية، والنهوض بالمجتمع فكرياً وإدارياً وسياسياً.

مقدمة :

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، أشرف الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

يعدّ خير الدين التونسي من أبرز الشخصيات السياسية والفكرية والإصلاحية في تاريخ تونس الحديث ؛ إذ اشتهر بلقب أبي النهضة التونسية الحديثة ، وقد ولد سنة 1820 م الموافق 1236 هـ ، وتوفي سنة 1890 م الموافق 1307هـ ، ولم تقتصر مكانته على كونه رجل دولة بل تقلد مناصب سياسية عليا ، وتجاوز ذلك ليكون له

مشروع إصلاحي متكامل ، سعى من خلاله إلى النهوض بالمجتمع والدولة في القرن التاسع عشر.

بدأت مسيرة خير الدين التونسي في ظروف خاصة، إذ شاءت الأقدار أن ينتقل في سن مبكرة إلى تونس، حيث نشأ في كنف أحمد باي ، وتدرج في الوظائف والمناصب السياسية ، من وزير إلى رئيس وزراء ، ثم صدر أعظم ، وقد سخر خبرته وموقعه السياسي لمحاربة الفساد، والعمل على تحديث المؤسسات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، مستلهماً في ذلك رؤيته الإصلاحية التي عبر عنها بوضوح في كتابه الشهير " أقدم المسالك في معرفة أحوال الممالك " .

وقد ذاع صيته في المشرق والمغرب، ونال تقدير عظماء عصره ، غير أن مسار الإصلاح لم يسر دائماً في الاتجاه المأمول ؛ إذ شهدت البلاد التونسية لأول مرة تراجعاً في الإصلاحات، ما أضطره إلى مغادرة تونس دون رجعة ، ثم انتهت مسيرته السياسية بإبعاده مرة أخرى إلى الأستانة ، حيث عجز - رغم توليه منصب الصدر الأعظم - عن إيقاف تدهور الإمبراطورية العثمانية وانحدارها نحو الهاوية.

وعلى الرغم من تلك الإخفاقات السياسية ، فإنه لا يمكن إغفال الإسهام الحقيقي، الذي قدمه خير الدين التونسي في خدمة مشروع النهضة العربية الحديثة وانطلاقاً من أهمية هذا الدور البارز، تأتي هذه الدراسة الموسومة بخير الدين التونسي وأطروحته الإصلاحية في تونس، لاستحضار فكره الإصلاحي وتحليل أبعاده السياسية والفكرية .

أسباب اختيار الموضوع :

يعود اختيار هذا الموضوع إلى الرغبة في إبراز مضامين البرنامج الإصلاحي، الذي صاغه خير الدين التونسي ، والكشف عن مرتكزاته الفكرية والسياسية ، وما انطوى عليه من تصورات تحديثية هدفت إلى النهوض بالدولة والمجتمع، كما يسعى هذا الموضوع إلى إظهار مكانة خير الدين التونسي ضمن نخبة المصلحين في القرن التاسع عشر ومقارنة جهوده الإصلاحية بغيره من رواد الفكر الإصلاحي في العالم الإسلامي ، وكذلك تسليط الضوء على مرحلة تاريخية مفصلية من تاريخ تونس والمنطقة العربية بوجه عام ، وهي مرحلة أتمت بتزايد الاحتكاك بالغرب ، وبروز تحديات سياسية واقتصادية وفكرية ، دفعت إلى البحث عن سبل الإصلاح والتجديد ، ويأتي هذا الاختيار - أيضاً - استجابة لأهمية دراسة الفكر الإصلاحي بوصفه مدخلاً لفهم تحولات الدولة الحديثة في الوطن العربي، وإبراز إسهامات المفكرين المسلمين في التوافق بين الأصالة ومتطلبات العصر، إلى جانب ذلك يكتسب الموضوع أهمية كونه يثري الدراسات التاريخية والفكرية المعاصرة، ويسهم في تقييم الوعي بأبعاد

المشروع الإصلاحي العربي، ويكشف عن راهنية افكار خير الدين التونسي وإمكان الإفادات منها في تحليل قضايا الإصلاح السياسي والفكري في السياق العربي الراهن

مشكلة الدراسة :

تتمحور مشكلة هذه الدراسة حول الكشف عن طبيعة الفكر الإصلاحي واتجاهاته عند خير الدين التونسي ، ومدى ملاءمته للواقع التونسي في القرن التاسع عشر الميلادي، في ظل ما عرفته الدولة التونسية من أزمات سياسية واقتصادية واجتماعية، وتزايد الاحتكاك بالحضارة الأوربية وضغوطها ، فقد برز خير الدين التونسي كأحد رواد الإصلاح في العالم الإسلامي، محاولاً التوافق بين التراث الإسلامي ومتطلبات الحداثة ، الأمر الذي يثير تساؤلات حول مصادر فكره وحدود تأثيره ونجاح مشروعه الإصلاحي.

وانطلاقاً من ذلك تتمثل إشكالية البحث الرئيسية في السؤال الآتي :

س- ما طبيعة الفكر الإصلاحي الذي طرحه خير الدين التونسي؟ وما مصادرة الفكرية ؟ وما مدى انعكاس إصلاحاته على المجتمع التونسي ؟

ويتفرع عن التساؤل الرئيسي مجموعة من التساؤلات الفرعية وهي:

1 - من هو خير الدين التونسي ؟ وما ظروف نشأته ومولده ؟

2 - ما أبرز مؤلفاته ؟ وما القضايا الإصلاحية التي تناولها ؟

3 - ما المدارس الفكرية التي تأثر بها خير الدين التونسي ، سواء الإسلامية أم الغربية ؟

4 - ما أهم الإصلاحات التي قام بها في تونس ؟ وما أثر هذه الإصلاحات في المجتمع التونسي سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ؟

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى التعرف على الإصلاحات الفكرية والسياسية والاجتماعية التي قام بها خير الدين التونسي، والكشف عن الدوافع والأسباب ، التي أدت إلى بروز حركة الإصلاح في المجتمع العربي الإسلامي خلال القرن التاسع عشر الميلادي ، مع بيان مدى تأثير هذه الإصلاحات في المجتمع التونسي على المستويين المؤسسي والثقافي ، كما تسعى الدراسة إلى تحليل السياق التاريخي والفكري ، الذي تشكلت فيه أفكار خير الدين الإصلاحية، وإبراز خصوصية مشروعه الإصلاحي مقارنة بغيره من رواد النهضة العربية، وتهدف الدراسة كذلك إلى تقييم إسهام هذه الإصلاحات في تحديث بنية الدولة والمجتمع في تونس ، وبيان إنعكاساتها على مسارات الفكر

الإصلاحي العربي اللاحق، بما يسهم في تعميق الفهم الأكاديمي لتجربة الإصلاح في العالم العربي والإسلامي.

أهمية الدراسة :

تنبع أهمية الدراسة من كون عصر النهضة العربية في القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين لايزال في حاجة إلى دراسات معمقة ، لاسيما أن القضايا الإصلاحية التي طرحها خير الدين التونسي لا تزال تستدعي قراءة علمية دقيقة ونظرة نقدية عقلانية ، كما تبرز أهمية البحث في إبراز راهنية فكره الإصلاحي وإسهامه في فهم مسارات الإصلاح والتحديث في الفكر العربي الحديث ، فضلاً عن كونه يسهم في سد جانب من النقص في الدراسات التاريخية المتعلقة بتجارب الإصلاح السياسي والفكري في تونس والعالم العربي.

منهج الدراسة :

اعتمد الباحث في تناول موضوع الدراسة على المنهجين الوصفي والتحليلي ؛ إذ تم توظيف المنهج الوصفي لرصد الظاهرة المدروسة وجمع معطياتها الأساسية وتحديد خصائصها وسياقاتها التاريخية والفكرية ، في حين استخدم المنهج التحليلي لتفكيك مضامين النصوص والأفكار ذات الصلة بالموضوع، والكشف عن أبعادها ودلالاتها العميقة ، كما جرى عرض مكونات البحث وتنظيم مادته العلمية وفق محاور مترابطة تخدم أهداف الدراسة وتسهم في تحقيق نتائج علمية دقيقة، وتم الاعتماد على مصادر أولية وثانوية ذات صلة بالموضوع، مع إخضاعها للمقارنة والنقد العلمي ، بما يضمن سلامة الاستنتاجات ودقة التحليل، ويعزز من موضوعية الدراسة ومنهجيتها العلمية.

الدراسات السابقة:

1 - هناك دراسات سابقة تناولت الفكري الإصلاحي لخير الدين التونسي ، ومن بين هذه الدراسات دراسة محمد الطاهر بن عاشور 1966م ، تناول فيها فكر خير الدين التونسي من خلال تحقيقه للكتاب (أقوم المسالك في معرفة أحوال المالك)، حيث أبرز الأسس الإصلاحية في فكر خير الدين التونسي ، ولاسيما دعوته إلى التوافق بين الشريعة الإسلامية ومتطلبات الإصلاح السياسي والإداري، وهو ما يفيد هذه الدراسة في تأصيل الإطار الفكري للمشروع الإصلاحي .

2 - و درس عبد الجليل التميصى 1984 م ، الدور السياسي والإداري لخير الدين التونسي ، مركزاً على المناصب التي تقلدها وأثر التجربة العلمية في صياغة رؤيته

الإصلاحية ، وخلص إلى أن الجمع بين الفكر والممارسة كان السمة الأبرز في شخصه ، وهوما يدعم توجه هذه الدراسة في الربط بين البعدين الفكري والتطبيقي.

3 - كما تناول أحمد عبد السلام الكراس 1992 م شخصية خير الدين التونسي في سياق النهضة العربية الحديثة، وقارنه برواد الإصلاح في القرن التاسع عشر الميلادي مبرراً خصوصيته في تجربته الإصلاحية، بوصفه مفكراً ورجل دولة ، وتفيد هذه الدراسة البحث الحالي في إبراز مكانة خير الدين التونسي ضمن حركة النهضة العربية ، وأسباب تميزه عن غيره من المصلحين.

تقسيمات الدراسة:

قسمت الدراسة إلى مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة، ومجموعة من المصادر والمراجع ، وهي على النحو التالي:

المبحث الأول : مولده ونشأته

المبحث الثاني : المدارس الفكرية التي تأثر بها

المبحث الثالث : مؤلفاته

المبحث الرابع : الإصلاحات التي قام بها

المبحث الأول : مولده ونشأته :

هو أبو محمد خير الدين التونسي، ينتمي إلى قبيلة الأبظة الشركسية القاطنة بجنوب شرقي القوقاز[1]، أخذ في إحدى الغارات أسيراً إلى إسطنبول ، وكان والده قد قتل في إحدى المعارك ضد الروس[2]، وبعد ذلك بيع في سوق العبيد ، فاشتراه أحد الأعيان التونسيين ؛ ليقدمه هديه بعد رجوعه إلى تونس إلى المشير أحمد باي الأول ، وكان ذلك سنة 1837 م ، حيث تربى في قصر باردو ، وتلقى مبادئ العلوم والفقه والتوحيد ، ثم توسع في العلوم الشرعية، وغيرها من العلوم الأخرى ، كما درس اللغة الفرنسية ، واطَّلع على العلوم العصرية ، وهو ما أسهم في تكوين شخصيته العلمية والفكرية منذ وقت مبكر [3].

ويقول خير الدين التونسي عن نفسه موضحاً أصوله و ظروف نشأته " بالرغم من يقيني أني شركسي الأصل، فإني لم احتفظ بأي ذكرى دقيقة عن موطني ولا عن أهلي ؛ فقد وقع اختطافي إثر عصر الحروب ، أو عند بعض الهجرات في سن مبكرة جداً من عائلتي " ، وهو تصريح يعكس حالة الانقطاع المبكر عن الجذور الأولى وتشكل ، وما رافقها من تحولات قسرية ، أثرت في مسار حياته اللاحقة، وأسهمت في تشكل وعيه وتجربته الإنسانية والسياسية [4].

و بالرغم من اختلاف المصادر في تحديد سنة مولده بين 1225هـ /1810م و1237هـ / 1821م ، إلا أن خير الدين التونسي تميز عن غيره من رجال النهضة في القرن التاسع عشر، إذ جمع بين شخصية المفكر ورجل السياسة، الأمر الذي جعله صاحب تجربة إصلاحية فريدة في المنطقة العربية الإسلامية [5].

المبحث الثاني - المدارس التي تأثر بها خير الدين التونسي:

تأثر خيرالدين التونسي بعدد من المدارس الفكرية والسياسية التي أسهمت في تشكيل مشروعه الإصلاحي، ويمكن إجمالها في الآتي :

1 - المدرسة الإصلاحية الإسلامية:

تأثر خيرالدين التونسي بالفكر الإصلاحي الإسلامي، الذي يدعو إلى التوافق بين الشريعة الإسلامية ومقتضيات العصر، ويؤكد على مبدا المصلحة العامة (المصلحة المرسلة) ، وضرورة إعمال العقل والاجتهاد في شؤون الحكم والإدارة مع الحفاظ على الأصول الدينية.

2 - المدرسة الدستورية الأوربية:

اطلع خيرالدين باشا خلال رحلاته إلى أوروبا على النظم السياسية الحديثة ، فتأثر بمبادئ الدستور، والفصل بين السلطات، وسيادة القانون ، والمجالس النيابية، ورأى في هذا النظام وسائل عملية لتنظيم الدولة وتقوية الحكم دون تعارض جوهري مع الإسلام.

3 - المدرسة العثمانية الإصلاحية (التنظيمات):

انتمى خيرالدين فكريا إلى تيار الإصلاح العثماني، الذي برز في عصر التنظيمات ، والذي دعا إلى تحديث الإدارة والجيش والتعليم، وإصلاح أجهزة الدولة على أسس قانونية ومؤسسية، مع الحفاظ على وحدة الدولة الإسلامية.

4 - المدرسة العقلانية البراغماتية:

أهتم فكر خير الدين بالنزعة العملية الواقعية ، إذ لم يدع إلى تقليد الغرب تقليداً أعمى ، بل إلى الأخذ بأسباب تقدمه العلمية والإدارية ، بما يخدم مصالح الأمة ويحقق نهضتها [6].

وتأسيساً على ما سبق من عرض للمدارس الفكرية ، التي أسهمت في تكوين الرؤية الإصلاحية لخير الدين التونسي، يتضح أن تأثره لم يقتصر على اتجاه واحد، بل جاء ثمرة تفاعل واسع مع عدد من التيارات الإصلاحية والفكرية ، فقد تأثر المصلح خيرالدين التونسي تأثراً واضحاً بحركة التنظيمات العثمانية الخيرية، وبالأفكار الإصلاحية التي حملها الشباب الأتراك، كما استفاد من آراء رفاعة رافع

الطهطاوي، الداعية إلى التحديث والاقتباس الواعي من التجربة الأوربية ، إلى جانب ذلك اطلع على أفكار عدد من المفكرين الغربيين ، أمثال المفكر: مونتسكيو الفرنسي ، وجوز ستيوارت مل الإنجليزي ، كما تأثر بمصلحي عصر التنوير وبالنظريات الخلدونية ، التي تعالج شؤون العمران البشري وأحوال الممالك والدول ، وقد انعكس هذا التفاعل الفكري في إعجابه بالحضارة الغربية ، إذ رأى فيها عناصر القوة والتقدم ، فدعا إلى الإفادة من وسائلها ومناهجها الحديثة ، وتسخيرها لخدمة مشروعه الإصلاحي في تونس، بما يسهم في دعم مسار النهضة العربية الحديثة ، كما أبدى تقديراً خاصاً لتجربة محمد علي باشا في مصر، ولاسيما في مجال الإدارة والتنظيم، واعتبارها نموذجاً قابلاً للاقتباس والتطوير في إطار المواقع العربي الإسلامي [7].

المبحث الثالث ـ مؤلفاته:

كان للمصلح خير الدين التونسي مجموعة من الكتب والمذكرات التي أسهمت في إثراء الحركة الفكرية والإصلاحية في القرن التاسع عشر ، ويأتي في مقدمة هذه المؤلفات ، كتاب (أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك) ، الذي نشر لأول مرة سنة 1876م ، ويعد من أهم المراجع الأساسية لدارسي الفكر الإصلاحي في عصر النهضة العربية ؛ إذ أسهم في إيقاظ الوعي بضرورة التحديث والإصلاح، ودعا إلى دراسة الأسس التي قامت عليها المدنية الغربية ، مع التأكيد على إمكانية الإفادة منها في المجتمعات العربية والإسلامية في إطار من التوازن بين الشريعة ومتطلبات العصر [8] .

وقد ترجمت مقدمة هذا الكتاب بإشراف المؤلف نفسه إلى اللغة الفرنسية سنة 1868 م ، كما أصدرت طبعته العربية في إسطنبول سنة 1876م، بالإضافة إلى ترجمته إلى اللغة الإنجليزية سنة 1974م [9] .

وإلى جانب هذا الكتاب خلف خير الدين التونسي عدداً من المؤلفات والكتابات الأخرى، من أبرزها : كتاب السيرة الذاتية، الذي تناول فيه مراحل من حياته الخاصة والعامة ، مسلطاً الضوء على تجربته السياسية والإدارية، وما واجهه من تحديات في مسيرته الإصلاحية، فضلاً عن عدد من الرسائل والمذكرات السياسية التي عالجت قضايا الحكم والإدارة، وإصلاح مؤسسات الدولة ، والتي عكست بوضوح رؤيته الإصلاحية القائمة على ترسيخ دولة القانون وتحديث البنى الإدارية [10].

كما نسبت إليه كتابات وآراء فكرية متفرقة ، تناولت قضايا التعليم والنهضة وأسباب التخلف في المجتمعات الإسلامية، وأسهمت مجتمعة في تأكيد مكانته بوصفه أحد أعلام الإصلاح في الفكر العربي الحديث [11].

المبحث الرابع ـ الإصلاحات التي قام بها خير الدين التونسي:

شهدت تونس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر جملة من الإصلاحات المختلفة، التي قام بها خير الدين التونسي، وشملت الجوانب السياسية والإدارية والاقتصادية والثقافية، بهدف تحديث مؤسسات الدولة ومواجهة مظاهر التخلف والاستبداد ، وانطلاقاً من هذا التصور الإصلاحي الشامل، برز اهتمامه الأول بالإصلاح السياسي ، بوصفه المدخل الأساسي لبقية الإصلاحات.

- **أولا الاصلاحات السياسية:**

تناول خير الدين التونسي مسألة الإصلاح السياسي ، انطلاقاً من الواقع الذي كانت تعيشه الدولة التونسية في القرن التاسع عشر ، حيث انتشر الفساد الإداري، وضعفت مؤسسات الحكم ، وتكرس الاستبداد السياسي ، وقد جاءت دعوته إلى الإصلاح استجابة لهذه الأوضاع المتردية ، وسعياً إلى تقويم نظام الحكم ، وذلك من خلال تبني جملة من القيم والمبادئ التي رآها متسقة مع روح الحضارة العربية الإسلامية ، وفي الوقت ذاته قادرة على تجاوز التحولات الحديثة في العالم المعاصر، ولاسيما خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وهي مرحلة تميزت بتصاعد الضغوط الاستعمارية الإدارية في تونس بوجه خاص [12].

أدرك خير الدين التونسي مبكراً خطورة الأطماع الاستعمارية الأوربية في تونس ، فكان حريصاً على رفض أي مطلب من شأنه المساس بالسيادة التونسية ، أو الضرر باقتصادها الوطني، على الرغم من إيمانه بأن الدين الإسلامي لا يشكل عائقاً أمام التعليم ، بل العكس يمكن أن يكون دافعاً للأخلاق والعفة والاحترام إلا أن الدولة الأوربية لم تتعامل مع هذه القناعة بالجدية الكافية، وظلت تنظر إلى العالم الإسلامي نظرة دونية تخدم مصالحها التوسعية [13].

دعا خير الدين التونسي إلى إنشاء مجلس شورى منتخب ، مستلهماً بعض ملامح التنظيمات الغربية الحديثة، دون أن يكون ذلك تقليداً أعمى للنموذج الأوربي ، فقد رأى أن الحاكم المستبد لا يمثل إرادة الأمة، بينما يعبر مجلس الشورى عن طموحات الشعب نحو التقدم والرقي، وقد تعزز هذا التصور لديه بعد إطّلاعه المباشر على النظم الديمقراطية في فرنسا، حيث خلص إلى قناعة مفادها أن خلاص تونس من التخلف لا يمكن أن يتحقق إلا عبر سلوك طريق التحديث السياسي القائم على المشاركة والشورى [14]، ومع ذلك لم يكن خير الدين يطمح إلى نقل التموذج الديمقراطي الغربي بحذافيره ، بل كان يسعى إلى توسيع صلاحيات المجلس الشوري ، خصوصاً في مجال سن القوانين وتنفيذها ، إلى جانب تقليص صلاحيات الحاكم المستبد ، غير أن

هذا المشروع الإصلاحي اصطدم بواقع سياسي متأزم ، وبعقبات رافضة للتغير، ما أدى إلى تعثر مساعيه الإصلاحية، والمعارضة المباشرة مع أنصار الحكم الفردي ، وقد أكد خير الدين في هذا السياق أن الاستبداد والانفراد بالرأي يؤديان حتماً إلى نتائج وخيمة ، حتى لو بلغ الحاكم قدراً عالياً من المعرفة والكفاءة ؛ لأن غياب المشورة يفتح الباب أمام الظلم وسوء التدبير[15].

ثانيا ـ الإصلاحات الاقتصادية:

شهدت الأوضاع الاقتصادية في تونس خلال فتره حكم خير الدين التونسي حالة من التراجع الملحوظ، إذ كان الاقتصاد التونسي يعتمد أساساً على النشاط الزراعي وبعض الحرف التقليدية، وهو ما جعله عرضة للتأثر بالتغير داخل البلاد، الأمر الذي انعكس سلباً على بنية الإنتاج ومستوى الدخل العام للدولة [16].

وفي إطار سعيه لمعالجة هذا التراجع، اتَّجه خير الدين التونسي إلى الاهتمام بالقطاع الزراعي بوصفه الركيزة الأساسية للاقتصاد، فأصدر قانون الخماسة ، الذي حدد واجبات الخماس ونظم علاقته بالفلاح، كما أصدر تعليماته إلى مختلف الهيئات والسلطات ، بضرورة تنفيذ هذا القانون ميدانياً، ومنح أهمية خاصة لعملية الإحصاء الدقيق للأراضي المزروعة في مختلف المناطق التونسية [17] .

ويبدو أن اعتماد خير الدين على النظام الإحصائي في هذا المجال ، كان يهدف إلى ضبط العملية الإنتاجية، باعتبارها الأساس الذي تنطلق منه التقديرات الحياتية ، بما يضن عدالة أكبر في توزيع الأعباء المالية ويحقق قدراً من التوازن بين الدولة والمنتجين الزراعيين [18].

حرص خير الدين التونسي على تشجيع استثمار الأراضي الزراعية وزراعتها وغرسها بمختلف أنواع الأشجار المثمرة، لاسيما النخيل والزيتون ، فأصدر قانوناً يعفي زراعة هذين النوعين من الضرائب لمدة عشر في عاماً ، وقد أسهمت هذه السياسة في اتساع رقعة الأراضي المزروعة لتبلغ عند فترة حكمه نحو مليون هكتار، في الوقت الذي لم تتجاوز ألف هكتار عند توليه الحكم [19] .

ويتضح ممَّا سبق أن خير الدين التونسي كان يولى أهمية كبيرة لزراعة النخيل والزيتون باعتبارهما من الأشجار التي تمثل المصدر الأساسي للاقتصاد التونسي في تلك الفترة .

أما فيما يتعلق بالقطاع التجاري، فقد عمد إلى خفض الإيرادات الجمركية بهدف تشجيع الإنتاج والتصدير وزيادة المداخيل [20] ، كما عمل على تنظيم التجارة الداخلية ، وذلك من خلال منع بيع السلع خارج الأسواق والمحلات المخصصة لها، سعياً إلى

خلق نوع من التنافس مع السلع الأجنبية، فضلاً عن رفع الرسوم الجمركية المفروضة على هذه السلع، حيث تراوحت نسبتها بين 3% و 8% مع تخفيضها بالنسبة للصادرات [21].

وقد اعتبر خير الدين التونسي النظام المالكي العصب الرئيسي الذي يقوم عليه اقتصاد البلاد، إذ يرتكز هذا النظام على عنصرين أساسيين : أولهما تحصيل الموارد المالية الضرورية ، وثانيها كيفية استغلال هذه الموارد المالية، والتي تتركز على الجباية وتوزيعها عادلاً ، وهو ما دفعه إلى إدخال تعديلات على طرق تحصيلها فأبطل ما هو غير مناسب [22].

- **ثالثاً ـ الإصلاحات الثقافية:**

شملت الإصلاحات الثقافية التي قام بها خير الدين التونسي إصلاحات جوهرية بالفعل ، إذ اتجه إلى إصلاح التعليم في جامع الزيتونة، فعمل على تطوير مناهجه ، بعد أن كان نسخة شبه مطابقة للتعليم في جامع الأزهر، كما أنشاء المدرسة الصادقية التي تخرجت منها نخبة من المثقفين الذين قادوا الحركة الفكرية خلال الفترة الاستعمارية، وأسهموا في نشر الثقافة والعلوم الحديثة، وإلى جانب ذلك، أنشأ مكتبة عامة كبرى ، ضمَّ إليها مكتبته الخاصة، وكانت تحتوى على أكثر من (1100) كتابٍ مخطوطٍ [23]، كما أولى عناية خاصة بنظام الأوقاف ، فعمل على تنظيم شؤون شرائها وبيعها وإدارتها ، بمساندة مجلس ثقافي أسهم في إنجاز هذه المهمة، كذلك سعى إلى تنظيم القضاء على أسس قانونية حديثة ، إذ رأى أن تونس تعاني اضطراباً وتذبذباً على الصعيد القانوني ، فضلاً عن أن الأجانب المقيمين فيها لم يكونوا خاضعين لأي نظام قانوني واضح ، بسبب غياب قانون منظم لهذه المسألة ، حيث عين خير الدين لجنة ضمت خبراء في القانون الحديث، إلى جانب علماء متخصصين في الشريعة الإسلامية ، وذلك بهدف صياغة قوانين تتلاءم مع أو ضاع المجتمع التونسي، غير أن هذه اللجنة لم تتمكن من إنجاز مهمتها في المدة المحددة ، نتيجة التعقيدات الكبيرة التي واجهت أعضاءها في تلك المرحلة [24].

- **رابعاً ـ الإصلاحات العسكرية :**

دعا خير الدين التونسي إلى تجديد المؤسسة العسكرية ، بوصفها ركيزة أساسية في بناء الدولة الحديثة ، غير أنه لم يسرد في عرض الأساليب أو الآليات التفصيلية لعملية التحديث العسكري، ويرجح أن هذا التوجه نابع من إدراكه لمسار التطوير الذي كانت تشكله الجيوش الحثيثة في عصره، ولاسيما في ظل التحولات الكبرى التي شهدها الميدان العسكري في أوروبا والدولة العثمانية ، وقد بدأ واثقاً بما يطرحه في هذا

الجانب، مستنداً إلى قناعته بأن إصلاح الجيش لا ينفصل عن إصلاح الإدارة والمالية والتعليم ، وهي الأسس التي تقوم عليها قوة المؤسسة العسكرية واستمراريتها [25].

كما أولى خير الدين التونسي أهمية خاصة لتنظيم الجيش على أسس عقلانية حديثة، تقوم على الانضباط وحسن التدبير وربط الترقية بالكفاءة لا بالاعتبارات التقليدية ، وقد رأى أن ضعف الجيش في العالم الإسلامي لا يرجع إلى نقص الشجاعة أو الروح القتالية ، بقدر ما يعود إلى غياب التنظيم وتخلف أساليب التدريب وسوء الإدارة العسكرية، ومن ثم دعا بصورة غير مباشرة، إلى الاستفادة من التجارب الأوربية في هذا المجال، مع مراعاة الخصوصيات السياسية والاجتماعية للدولة الإسلامية [26].

وإلى جانب ذلك شدد خير الدين التونسي على ضرورة ارتباط الإصلاح العسكري بإصلاح مالي شامل ، إذ لا يمكن - في نظره - إقامة جيش قوي ومنظم دون مورد مالية مستقرة وإدارة رشيدة للإنفاق العام، فالجيش الحديث يتطلب تسليحاً متطورا و رواتب منتظمة ومؤسسات تعليمية عسكرية قادرة على تخريج ضباط مؤهلين، ومن هنا فإن مشروعه في الإصلاح العسكري يندرج تحت رؤية إصلاحية متكاملة ، تستهدف بناء دولة قوية قادرة على الدفاع عن سيادتها وموالية لمظاهر التقدم في العصر الحديث [27].

الخاتمة و النتائج

بعد العرض والتحليل الذي تناولته هذه الدراسة ، تمكن الباحث من استخلاص جملة من النتائج يمكن إجمالها فيما يلي:

-أولاً يعد خير الدين التونسي أحد أبرز رموز الفكر الإصلاحي العربي في القرن التاسع عشر ؛ إذ قدم إلى تونس في سن مبكرة ، وتدرج في تقلد عدد المناصب السياسية والإدارية العليا، الأمر الذي أتاح له الاطلاع المباشر على مكامن الخلل في بنية الدولة ومؤسساتها، وقد سخر خبرته العملية ومكانته السياسية لخدمة مشروعه الإصلاحي، الذي بلوره في كتابة الشهير (أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك) ساعياً من خلاله إلى النهوض بالبلاد التونسية، رغم ما كانت تعانيه من أزمات داخلية وضغوط خارجية ، وهو ما أسهم - ولو بصورة نسبية - في إحداث تغير نوعي في مسار الإصلاح.

- ثانياً أظهرت الدراسة أن المشروع الإصلاحي لخير الدين التونسي أتَّسم بالشمول والتكامل ، إذ لم يقتصر على جانب دون آخر، بل شمل الإصلاح السياسي والإداري والمالي والعسكري والتعليمي ، وقد انطلق في ذلك من قناعة راسخة بأن تقدم الدول لا

يتحقق الا بإصلاح مؤسساتها وفق أسس عقلانية حديثة ، مع الاستفادة من تجارب الأمم المتقدمة، دون التفريط في الخصوصيات الدينية والثقافية للمجتمع التونسي .

- **ثالثاً** بينت نتائج الدراسة أن خير الدين التونسي تبنى منهجاً توفيقيا في فكرة الإصلاح ، جمع فيه بين مبادئ الشريعة الإسلامية ومتطلبات العصر الحديث ، فقد رأى أن الأخذ بأسباب التقدم الغربي لا يتعارض مع جوهر الإسلام ، بل ينسجم مع مقاصده الكبرى القائمة على تحقيق المصلحة العامة ، وإقامة العدل وحفظ كيان الدولة والمجتمع .

- **رابعاً** كشفت الدراسة أن الإصلاحات التي دعا إليها خير الدين التونسي واجهت جملة من التحديات والعوائق ، من أبرزها مقاومة القوى التقليدية، وضعف الوعي الإصلاحي، إضافة إلى التدخلات والضغوط الأجنبية، وقد حدت هذه العوامل من تحقيق مشروعه الإصلاحي بصورة كاملة ، إلا أنها لم تفقده قيمته الفكرية والتاريخية .

بيان تضارب المصالـــح:

يُقر المؤلف بعدم وجود أي تضارب مالي أو علاقات شخصية معروفة قد تؤثر على العمل المذكور في هذه الورقة

الهوامش :

1- خير الدين التونسي ، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك ، تحقيق الطاهر بن عاشور ، تونس الدار التونسية للنشر ، 1986م ، ص 15،18 ، وخير الدين الزريلي ، الأعلام في قاموس التراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستشرقين ،بيروت ، دار العلم للملاين 2002م، ص 375.

2 - نفس المرجع ، ص 19 .

3 - محمد الأمين أبوغزالة خير الدين التونسي، حياته وأطروحته الإصلاحية ، رسالة ماجستير منشورة ، طرابلس ، الأكاديمية الليبية ، 2021م ،ص41 ،42 .

4 – محمد محفوظ ، تراجم المؤلفين التونسيين ، تونس ، الدار التونسية للنشر ، 1984م ، ج1 ، ص214 .

5 – نفس المرجع ، ص 214 .

6 - خير الدين التونسي ، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك ، تحقيق محمد حبيب الحصيلة ، بيروت ، دار العرب الإسلامي ، 1985 م ، ص 20،25.

7 - محمود محمد علي، خير الدين التونسي ، منارة الإصلاح والتنوير في تونس، أسيوط، جامعة أسيوط، د . ت ، ص 11 .

8 - خير الدين التونسي ، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك ، تحقيق الطاهر بن عاشور ، مرجع سابق ، ص 7، وخير الدين الزركلي، مرجع سابق ص 375.

9 - عبد الجليل التيميمي، خير الدين التونسي، حياته وفكره الإصلاحي ، بيروت، دار الطليعة 1978 م ، ص 90 .
10 – محمد محفوظ ، مرجع سابق ، ص 216 .
11 - أحمد أمين ، زعماء الإصلاح في العهد الحديث ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة، 1952، ص 92 .
12 - سمير حمدون، خير الدين التونسي أبو النهضة التونسية ، بيروت، دار الكتاب العلمي 1993م ، ص 23، 24 .
13 - محمود محمد علي، مرجع سابق ، ص 23، 24 .
14 – سمير حمدون ، مرجع سابق ، ص 45 ، 46 .
15 - نفس المرجع ، ص 34 .
16 - محمد الأمين أبو غزالة ، مرجع سابق ، ص 41،42.
17 - عبد القادر دومه ، الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية لخير الدين التونسي في منتصف القرن التاسع عشر وعلاقته بالحضارة الغربية ، مجلة الموقف للبحوث التاريخية في المجتمع والتاريخ، ديسمبر 2016م ، ص 204 .
18 - زهير الذوادي، الاستعمار وتأسيس الحركة الإصلاحية الوطنية التونسية ، الأطلسية للنشر، 2006 م ، ص 153.
19 - محمد الأمين أبو غزالة، مرجع سابق ، ص 153 .
20 - نفس المرجع ، ص 44 .
21 - عبد القادر دومة، مرجع سابق، ص 207 ، 208 .
22 - نفس المرجع ، ص 44 .
23- سمير حمدون ، مرجع سابق ، ص 46 .
24 - نفس المرجع ، ص 46 ، 47 .
25 - خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك ، تحقيق الطاهر بن عاشور، مرجع سابق ، ص 247 ، 248 .
26 - عبد الجليل التيمي، مرجع سابق ، ص 133 ، 135.
27 - خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك ، تحقيق الطاهر بن عاشور، مرجع سابق ، ص 212 ، 214 .